نظامنا الاجتماعي

(١٣) الحريّة والعقل

لقد سبقت كلمتنا في الحرية والاخلاق في مقتطف فبراير المتصرم. وكان حقاً علينا ان نبين للقراء بعد هذه الكلمة ارتباط العلم بالحرية ولكنا رأينا تأجيل هذا المبحث الجليل الى مقتطف ابريل حتى يكون القراء قد وقفوا على ارتباط الحرية بالعقل وارتباط العقل بالحرية واثر ذلك في العلم والمجتمع الانساني لأن العقل أقوى دعائم العلم وشئون الحياة، وهذه الدعائم لا تنهض إلا بالحرية ولا يقيمها إلا الأحرار في الدول الحرّة ولأن موضوعنا في هذا العدد وسيلة إلى إدراك موضوعنا الآتي في المقتطف المقبل والوسائل قبل الغايات، والنتائج تلدها المقدمات

وما العقل إلا مجموع ما في الانسان من احساس وارادة وتفكير، كما قال علماء النفس، فانك إذا جردت الانسان من احساسه وارادته وتفكيره فقد جردته من عقله، يتجلى ذلك في الوسيط إذا نُوِّم تنويماً مغناطيسياً فانهُ يتجرّد من كلّ أولئك ويكون والحالة هذه خاضعاً لأرادة منوّمه وتفكيره ولا إحساس له وقد شهدنا ذلك في تجارب كثيرة أجراها أمامنا الأستاذ برناردو والاستاذ مراد في القاهرة

ولو تركت الحريّة للعقل لتحيص ما تطمح إليه النفس قبل أن تكلّفه الإرادة شططاً للحصول عليه لكان الإنسان في غنية عن كثير من العناء الذي يلاقيه في سبيل أمانيه — إن الأمانيّ والأحلام تضليل — ولا مكنه التغلب على كثير من الشهوات الضارة كالطمع الأعمى الذي يصرعه قبل أن يبلغ أمنيّة من أمانيه ولا ريب فإن مصارع الرجال تحت بروق الطمع

فإذا خالفت النفس هذه الميول التي تكلّفها شططاً وانحصرت رغباتها في الممكن المباح أمكن الانسان نيل مقتضى الرغبة فأمتع نفسه وأرضاها بهذه الوسيلة الوحدة

وعلى هذا يكون الأساس القوي لنيل السعادة إنما هو غلبة سلطان العقل على سلطان الميل الجموح فحينئذٍ يحكم الإنسان نفسه ويتدل في رغباته. والعقل وحده هو الذي يهدي الإنسان النجدين نجد الخير ونجد الشر ولذلك كان الثواب والعقاب

فى الحياتين الاولى والأخرى ، وعلى قدر حظ العقل من القوة والتمييز والعلم والتربية يكون حظه من السعادة

وإذ أن العقول متفاوتة كانت آراء الناس ورغباتهم متباينة على قدر ذلك التفاوت

لولا مواهب فى بعض الانام لما تفاوت الناس فى الأقدار والقيم

ولهذا السبب يثير حب الثناء أو الحمد نفوس فريق من الناس فيتطلبونه فى كل سبيل ويبذلون من أجله كل نفيس ولا يؤثر هذا المطلب فى نفوس فريق آخر فلا يحرك رغبتهم فيه فتراهم لا ينشدونه وكذلك المال يحبه فريق حبًّا جمًّا فيستعبدهم ولا يكون له هذا السلطان القوىّ على فئة الزهّاد العقلاء

وكذلك حب الرياسة التى تطيش بها أحلام طائفة من الناس وتتوق اليها نفوسهم وهم ليسوا أهلاً لها فتمرض قلوبهم وتزل اقدامهم . والشواهد كثيرة

ولا يحفل بالرياسة ناس آخرون وإن كانوا أهلاً لها فلا يسعون الى إدراكها بل يفرون منها ولا يقبلونها الا مكرهين نزولاً على إرادة الجماعة أو أولى الأمر

وبينما نجد شرذمة من الناس تهافت على الرتب والأوسمة والألقاب المشعرة بالرفعة إذ نجد شرذمة أخرى لا تعنى بها

فمما تقدم يعلم القراء ان هذا التفاوت أو شبهه ناشأ من اختلاف قوى العقول لفزارة العلوم مع التربية أو قلتها أو عدمها فاكثر الناس عقلاً وعلماً وتربية أبعدهم عن الظهور وإن اظهرتهم أعمالهم فما عليهم من حرج ولذلك نراهم على خلق عظيم وإن تواضعهم على شرفهم ليزيد فى شرفهم

هم السلاطين فى أطمار مسكنة جرّوا على الفلك الدوّار أذيالا

وقد ثبت لدى علماء النفس أن المخ هو موضع العقل لأنهُ مركز الإحساس والتفكير والإرادة ومجموعها هو العقل كما سبق . ونشأة العقل فى الإنسان لا تحدث إلا بشيئين أولهما أن يزوّد بكثير من المعارف والحقائق المفيدة وثانيهما أن يدرّب تدريباً نافعاً

غير أنّا إذا نظرنا الى التعليم وحده ألفيناه لا يفى بالنهوض بالعقل الى الغاية المقصودة لأن نشأة العقل كنشأة الجسم لا تكون الا بالتدريب الصالح ولذلك كان حقاً على المربين أن يقرنوا التعليم بتدريب المتعلم على الاستنباط والتعليل والحكم الى غير ذلك من الاعمال العقلية وهذه الاشياء لا تكون إلا فى جوّ الحرية العقلية . أما

قصر الاساتذة أبناءهم على التلقّن والحفظ والاستذكار فغير بعد لأنّ العقل يكون حينئذٍ قد جرم أخص خصائصه وذلك هو الاستبداد عينه ولا يتخرج عليهم في العلم علماء مفكرون بل أسطوانات تحكي ما طبع عليها وكلّ مخترع يكون حاكياً متحرّكا وما قتل التفكير من كثير من المتعلمين سوى اتباع هذه الطريقة العقيم ولم يتربص بذلك النوع الانساني نوائب الانسان أكثر من تربصهم لهذه الموهبة العظيمة وهي العقل لعلمهم أنها السيف المذي لو جرد من غمده لم تقف امامهُ جيوش الباطل ولذلك عنى المستعمرون جدّ العناية بالحجر على العقول وإفسادها بالبرامج التي لا تفيد علماً ولا ترقي أدباً وهي لطولها تحمل المدرسين على الاسراع في تدريسها والطلبة على حفظها ولا يتسع الوقت للمناقشة والاستفسار ومما يزيد الطين بلة عدم ملاءمتها لسن الاولاد وحالتهم الصحية والعقلية ولذلك قد شحنا الآن برقاً يبشر باصلاح برامج تعليمنا تلك البرامج العتيقة وهذه أول خطوة في سبيل حياتنا الحرّة

ولا غرو إذا عنيت الشعوب الراقية بتحرير العقول ليطّرد رقيها. قال لاروس (إذا بحثنا عن سبب الرقي الذي حصل في العالم منذ بداية الجماعات الى الآن فلا نراه إلاّ نتيجة تحرير العقل المحجور عليه المستبد به)

وما كانت تلك المخترعات ولا هذه المحسنات ولا اولئك الافذة إلاّ من الأفكار والعقول المستقلة الحرّة

وما الحضارة والمدنية الحاضرة إلاّ ثمرة الاستقلال بالرأي ولولاه لظل القديم على قدمه وبقي الانسان في حالته الهمجية الاولى

ولم يكن تحرير العقول إلاّ بعد مقاومة وجهاد بين الحرية والاستبداد والغلبة للأقوى وهذه فرنسا يحدّث عنها لاروس في دائرة معارفه قال (من زمن الاصلاح إلى زمن الثورة الفرنسية استمرت المجادلات بحظوظ مختلفة بين محرري العقل والمستبدين به حتى تغلب انصار الحرية على انصار الاستبداد فتحررت العقول واستنارت البصائر) وها قد حان وقت تحرير عقولنا لاننا تنسّمنا نسمات من الحرية في عهد جلالة مليكنا فؤاد الاول الذي أطلق أمته من عقالها بعد أن لبثت حقبة من الدهر في الأسر . وستدأب في سبيل الحرية حتى تبلغ الغاية، ولكل بداية نهاية ؟

عبد الرحيم محمود
المدرس بمدرسة المعلمين الثانوية